على هامش النقد :

التناســـق الفني في تصوير القرآن

للأستاذ سيد قطب

قلنا : إن القرآن يرسم صوراً ويعرض مشاهد[1] ، فينبغي أن نقول : إن هـذه المشاهد وتلك الصور ، يتوافر لها أدق مظاهر التناسق الفني في ماء الصورة ، وجو المشهد ، وتقسيم الأجزاء ، وتوزيعها في الرقعة المعروضة .

والذي نعنيه هو :

أولا : ما يسمى « بوحدة الرسم » . وحتى المبتدئون في القواعد يعرفون شيئاً عن هذه الوحدة ، فلسنا في حاجة إلى شرحها . ويكفي أن نقول إن القواعـد الأولية للرسم تحتم أن تكون هناك وحدة بين أجزاء الصورة ، فلا تتنافر جزئياتها .

وثانياً : توزيع أجزاء الصورة — بعد تناسبها — على الرقعة بنسب معينة حتى لا يزحم بعضها بعضا ، ولا تفقـد تناسقها في مجموعها .

وثالثاً : اللون الذي ترسم به ، والتدرج في الظلال ، بما يحقق الجو العام المتسق مع الفكرة والموضوع .

والتصوير بالألوان يلاحظ هذا الانسجام ، ويقع شيء منه في بعض المشاهد المسرحية والسينمائية المبدعة . والتصوير في القرآن يلاحظ هذا كله ، وإن كانت وسيلته الوحيدة هي الألفاظ . وبذلك يسمو الإعجاز فيه على تلك المحاولات .

١ — خذ سورة من السور الصغيرة التي ربما يحسب البعض أنها شبيهة بسجع الكهان أو حكمة السجاع . خذ سورة « الفلق » .

فما الجو المراد إطلاقه فيها ، إنه جو التعويذة ، بما فيـه من خفاء وهينمة وغموض وإبهام ، فاسمع :

« قُلْ : أعوذُ بربِّ الفَـلَق . من شرِّ ما خَـلَق . ومن شرِّ غاسِقٍ إذا وَقَب . ومن شر النفّاثات في العُـقَد . ومن شر حاسد إذا حسد » .

فما الفلق الذي يستعيذ بربه ؟ نختار من معانيه الكثيرة معنى الفجر ؛ لأنه أنسب في الاستعاذة به من ظلام ما سيأتي : مما خلق ومن الغاسق ، ومن النفاثات ، ومن الحاسد ، ولأن فيه إبهاما خاصاً سنعلم حكمته بعد قليل .

يعوذ برب الفجر « من شر ما خلق » هكذا بالتنكير وبما الموصولة الشاملة . وفي هـذا التنكير والشمول يتحقق الغموض والظلام المنوي في العموم . « ومن شر غاسق إذا وقب » الليل حين يدخل ظلامه إلى كل شيء ، ويمسي مرهوباً مخوفاً . « ومن شر النفاثات في العقد » وجو النفث في العقد من الساحرات والكواهن كله رهبة وخفاء وظلام ، بل هن لا ينفثن غالباً إلا في الظلام . « ومن شر حاسد إذا حسد » والحسد انفعال باطني مطمور في ظلام النفس ، غامض مرهوب كذلك .

الجو كله ظلام ورهبة ، وخفاء وغموض . وهو يستعيذ من هـذا الظلام بالله ، والله رب كل شيء . فلم خصصه هنا « برب الفلق » ؟ . . . لينسجم مع جو الصورة كلها ، ويشترك فيه . ولقد كان المتبادر إلى الذهن أن يعوذ من الظلام برب النور ، ولكن الذهن هنا ليس المحكم ، إنما المحكم هنا هو حاسة التصوير الدقيقة ، فالنور يكشف الغموض المرهوب ، ولا يتسق مع جو الغسق والنفث في العقد ، ولا مع جو الحسد ... و « الفلق » يؤدي معنى النور من الوجهة الذهنية ثم يتسق مع الجو العام من الوجهة التصويرية ، وهو مرحلة قبل سطوع النور تجمع بين النور والظلمة ، ولها جوها الغامض المسحور .

ثم ما هي أجزاء الصورة هنا أو محتويات المشهد ؟

هي من ناحية : « الفلق ، والغاسق » مشهدان من مشاهد الطبيعة . ومن ناحية « النفاثات في العقد ، وحاسد إذا حسد » مخلوقان آدميان .

وهي من ناحية : « الفلق » و « الغاسق » مشهدان متقابلان في الزمان . ومن ناحية : « النفاثات » و « الحاسد » جنسان متقابلان في الإنسان .

(١) يراجع عدد الهجرة من الرسالة هذا العام .

وهذه الأجزاء موزعة على الرقعة توزيعاً متناسقاً . متقابلة فى اللوحة ذلك التقابل الدقيق . وكلها ذات لون واحد ، فهى أشياء غامضة مرهوبة ، يلفها الغموض والظلام . والجو العام قائم على أساس هذه الوحدة فى الأجزاء والألوان .

ليس فى هذا البيان شىء من التمحل ، وليست هذه الدقة كلها بلا هدف . وليس هذا الهدف حلية عابرة . فالمسألة ليست مسألة ألفاظ أو تقابلات ذهنية . إنما هى مسألة لوحة وجو وتنسيق وتقابلات تصويرية تعد فناً رفيعاً فى التصوير ، يلفت النظر إذا أداه مجرد التعبير .

٢ — عبر القرآن عن الأرض قبل نزول المطر ، وقبل تفتحها بالنبات ، مرة بأنها « هامدة » ومرة بأنها « خاشعة » وقد يفهم البعض أن هذا مجرد تنويع فى التعبير . فلننظر كيف وردت هاتان الصورتان :

لقد وردتا فى سياقين مختلفين على هذا النحو :

(ا) وردت « هامدة » فى هذا السياق « يأيها الناس : إن كنتم فى ريب من البعث ، فانا خلقنا كم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ؛ لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج » .

(ب) ووردت « خاشعة » فى هذا السياق : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لاتسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن ، إن كنتم إياه تعبدون ،فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسأمون . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت »

وعند التأمل السريع فى هذين السياقين ،يتبين وجه التناسق فى « هامدة » و « خاشعة » . إن الجو فى السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج ؛ فما يتسق معه تصوير الأرض بأنها « هامدة » ثم تهتز وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج .

وإن الجو فى السياق الثانى هو جو عبادة وخشوع وسجود ، فما يتسق معه تصوير الأرض بأنها « خاشعة » فاذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت .

ثم لا تزيد على الاهتزاز والإرباء هنا ، الإنبات والإخراج كما زاد هناك ، لأنه لا محل لهما فى جو العبادة والسجود . ولم تجىء « اهتزت وربت » هنا للغرض الذى جاءتا من أجله هناك . إنهما هنا تخيلان حركة للأرض بعد خشوعها ، وهذه الحركة هى المقصودة هنا ، لأن كل مافى المشهد يتحرك حركة العبادة ، فلم يكن من المتناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة . فاهتزت لتشارك العابدين المتحركين فى المشهد حركتهم ، ولكى لا يبقى جزء من أجزاء المشهد ساكنا وكل الأجزاء تتحرك من حوله . وهذا لون من الدقة فى تناسق الحركة المتخيلة ، يسمو على كل تقدير .

ويحسن أن نلاحظ أن الهمود والخشوع يتحدان فى المعنى العام ، ويستدل بهما فى الآيتين على قدرة الخالق على البعث ، فما هما إلا سكون أو خمود ، تعقبه الحركة والحياة ، فلو كان المقصود هو مجرد أداء المعنى الذهنى ، لما كانت هناك ضرورة لهذا التنويع . ولكن التعبير القرآنى لا يرمى إلى مجرد أداء المعنى الذهنى ، إنما يريد الصورة كذلك ، والصورة تقتضى هذا التنويع ، ليتم التناسق مع الأجزاء الأخرى فى اللوحة ، أو فى المشهد المعروض

ودلالة هذا التنويع حاسمة فى أن « التصوير » مقصود قصدا فى أسلوب القرآن ؛ وأن التعبير لا يقصد إلى أداء المعنى الذهنى مجردا ، إنما يعمد إلى رسم صور للمعانى ، تختلف هذه الاختلافات الدقيقة اللطيفة حسب اختلاف الأجزاء والألوان

ثم لننظر الآن إلى « وحدة الرسم » فى كل من الصورتين ، وفى أجزاء الصورة كذلك .

وحدة الصورة الأولى هى : مخلوقات حية تخرج من الموت أو مشاهد حياة ، والأجزاء هى : نطفة تدرج فى مراحلها المعروفة ونبتة تصير زوجا بهيجاً . وهى تراب ميت تخرج منه هذه النطفة ، وأرض هامدة تخرج منها هذه النبتة . والجو العام هو جو الإحياء المرتسم من هذه الأجزاء

ووحدة الصورة الثانية هى : مخلوقات طبيعية عابدة ، أو مشاهد طبيعية . والأجزاء هى : الليل والنهار، والشمس والقمر، والأرض

خاشعة لله . تموج فيها وتتصل بها جماعتان من الأحياء مختلفتا النوع متحدتا المظهر : جماعة من الناس تستكبر على العبادة ، وجماعة من الملائكة تعبد بالليل والنهار . والجو العام هو جو العبادة المرتسم من هذه الأجزاء .

وهكذا تتناسق الجزئيات مع الجو العام ، وتتحد جزئيات الصورة الواحدة تحقيقاً لوحدة الرسم وتوزع الأجزاء فى الرقعة بهذا النظام العجيب .

٣ — عرض القرآن فى مواضع مختلفة كثيراً من صور النعمة التى أفاءها الله على الإنسان ، وفى كل موضع كان يعرض مجموعة من النعم ، متسقة « الوحدة » على هـذا النحو الذى نعرضه فى موضعين للتمثيل :

(ا) « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعا إلى حين » .

« والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكناناً ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرَّ وسرابيل تقيكم بأسكم . كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون »

(ب) « وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها — من بين فَرْثٍ ودم — لبناً خالصاً سائغاً للشاربين .

« ومن ثمرات النخيل والأعناب ، تتخذون منه سكَراً ورزقاً حسنا . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

« وأوحى ربك إلى النحل : أن اتخذى من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذُلُلاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »

يلاحظ فى هذين السياقين أن الأنعام مذكورة فيهما على السواء ، فلننظر من أى الجوانب عرضت فى كل سياق ، ولماذا عرض هذا الجانب هنا ، وذلك الجانب هناك .

(ا) السياق الأول يرسم صورة أو مشهداً للبيوت ، والأكنان والظلال ، والسرابيل ، وكلها مما يلاذ به ، أو يستتر ، أو يستظل أو يحتمى . ولأن هذا هو « وحدة الرسم » عرض من « الأنعام » الجانب الذى يتفق مع هذه الوحدة . عرض الجلود التى تتخذ بيوتاً تستخف يوم الظعن ، والأصواف والأوبار والأشعار التى تتخذ أردية وأثاثاً .

(ب) والسياق الثانى يرسم صورة أو مشهداً لاستخراج الأشربة : السكر الذى يستخرج من الثمار ، والعسل الذى يخرج من النحل . ولأن هذه هى « وحدة الصورة » عرض من الأنعام الجانب الذى يناسب الأشربة . عرض اللبن السائغ للشاربين .

ولم تقف دقة التنسيق عند وحدة المنظر العامة ، بل تمشت إلى دقائق الجزئيات : فهذا السكر يستخلص من الثمرات المخالفة فى هيئتها وطبيعتها للعسل ، وهذا اللبن يستخرج من بين فرث[1] ودم المخالفين فى هيئتهما وطبيعتهما للبن ؛ فهى كلها تستحيل من أشياء أخرى . ثم المنظر كله منظر زراعى حيوانى .

ألا إنه الإبداع هنا فى دقة التصوير ، وفى تناسق الإخراج .

ومثل هذه اللمسات الدقيقة التى تستوعب دقائق الجزئيات كثير فى القرآن ، نكتفى منه بهذه الأمثلة ، ونضيف إليها المثال التالى لما له من دلالة خاصة !

٤ — « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم . فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما » .

فالصورة صورة مبايعة بالأيدى ، ولتنسيق الجو كله ، جعل « يد الله فوق أيديهم » واستخدم هذا التجسيم فى موضع التجريد المطلق ، والتنزيه الخالص .

وعلماء البلاغة يسمون مثل هذا : « مراعاة النظير » ويعنون منه الجانب اللفظى ، لأنهم لم يحاولوا أن يلحظوا جانب التصوير ، ونحن نأخذ تعبيرهم نفسه « مراعاة النظير » ونعنى به جانب التناسق الفنى فى الصورة ، للمحافظة على « وحدة الرسم » وعلى جو المشهد وعلى الانسجام العام .

* * *

ولكن القرآن لا يستخدم فى التصوير هذه « اللمسات الدقيقة » وحدها ؛ إنما يستخدم كذلك « اللمسات العريضة » (ونحن نعبر بلغة التصوير لأننا فى الواقع أمام تصوير قبل التعبير) هذه اللمسات العريضة قد تجمع بين السماء والأرض فى نظام ، وبين مشاهد الطبيعة ومشاهد الحياة فى سياق . حيث تتسع رقعة

(١) الغذاء المهضوم فى الأمعاء .

الصورة لهذا كله على أساس من « الوحدة الكبيرة » بدل « الوحدة الصغيرة » .

١ — من ذلك : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ؟ »

فهذه ريشة تجمع بين السماء والأرض والجبال والجمال ، فى مشهد واحد ، حدوده تلك الآفاق الوسيعة من الحياة والطبيعة ، والملحوظ هنا هو « الضخامة » وما تلقيه فى الحس من استهوال ، والأجزاء موزعة بين الاتجاه الأفقى فى السماء المرفوعة والأرض المبسوطة ، والاتجاه الرأسى بينهما فى الجبال المنصوبة ، والإبل الصاعدة السنام . وهذه دقة تأخذها عين المصور الدقيقة فى الأشكال والأحجام .

ومما يلاحظ هنا بعين المصور كذلك أن لوحة طبيعية تشمل السماء والأرض والجبال ، لا يبرز فيها من الأحياء إلا الجمال ، أو ماهو فى حجم الجمال ! والجمل هو الحيوان المناسب ، لأنه أليف الصحراء الفسيحة التى تحدها السماء والجبال !

٢ — ومن هذا النحو — مع تغيير فى مواضع اللمسات : «ولقد جعلنا فى السماء بروجاً ، وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين . والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ، ومن لستم له برازقين » .

ففى السماء بروج ضخمة ، وشهب تنقض على المردة . وفى الأرض الممدودة رواس راسخة، ونبت«موزون»(لا « بهيج » لطيف !) وفى الأرض كذلك « معايش » بهذا الجمع والتكثير، وفيها من لا يرزقه الناس بهذا التهويل والتكثير... وهذه مشاهد وخدتها الضخامة الحسية والمعنوية .

٣ — وقد تتسع الرقعة ويتطاول المدى وتعرض اللمسات ، ولكنها تدق فى النهاية حتى تتناول الجزئيات :

مثال ذلك : « إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم مافى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير » .

فهذه رقعة فسيحة فى الزمان والمكان ، وفى الحاضر الواقع ، والمستقبل المنظور ، والغيب السحيق ، وفى خواطر النفس ووثبات الخيال ، مابين الساعة البعيدة المدى ، والغيث البعيد المصدر ، وما فى الأرحام الخافى بلفظه وحقيقته عن العيان ، والرزق فى الغد وهو قريب فى الزمان مغيب فى المجهول ، وموضع الدفن وهو مبعد فى الظنون .

إنها رقعة فسيحة الآماد والأرجاء ، ولكن اللمسات العريضة بعد أن تتناولها من أقطارها ، تدق فى أطرافها ، وتجمع هذه الأطراف كلها عند نقطة الغيب المجهول ، وتقف بها جميعاً أمام كوة صغيرة مغلقة ، لو انفتح منها سم الخياط لاستوى القريب خلفها بالبعيد ولانكشف القاصى منها والدان .

* * *

ذلك أفق واحد من آفاق التناسق الفنى فى تصوير القرآن ووراءه آفاق أخرى وآفاق !

سيد قطب